في عام 2016، انطلقت تجربة موسيقية مثيرة في قطاع غزة، تحمل اسم «جوقة غزة للشباب». لم تصدر الجوقة سوى ألبوم واحد، يحمل عنوان «تحية لغزة»، ويضم ست أغنيات تراثية، فضلاً عن أربع أغانٍ خاصة أُلّفت ولُحّنت للفرقة

جوقة غزة لكلّ العيون الحزينة

هيثم أبوزيد

تثير تجربة جوقة غزة للشباب كثيراً من الدهشة والإعجاب. أغنياتها العشر جاءت تعبيراً عن أفضل ما يمكن أن يخرج من أداء جماعي لفرقة ضمت نحو 40 شاباً وفتاة، مع حرص المنتجين على توفير كل وسائل الدعم الفني والتقني، ولتجمع الأسطوانة بين أغنيات حديثة كُتبت خصيصاً للفرقة، وأغنيات تراثية، لها مكانتها في الوجدان الشعبي الفلسطيني والعربي. لكن، في الوقت عينه، تثير التجربة قدراً من الأسى والتعجب، إذ رغم مرور قرابة ثماني سنوات على إطلاق أسطوانة «تحية لغزة»، بقيت «جوقة الشباب» واحدة من فرق «الألبوم الواحد»، حتى مع النجاح وجودة العمل. اشتركت جهات عدة وأفراد عديدون في إنجاح الألبوم الأول والأخير. ويبدو أن كثرة الجهات والأفراد صعبت مهمة التقائهم مرة أخرى.

جوقة غزة للشباب هي إحدى الفرق التابعة لمعهد إدوارد سعيد الوطني للموسيقى، وتحديداً فرع غزة، وصدر ألبومهم الوحيد عام 2016، بتعاون بين المعهد وشركة Kirkelig Kulturverksted (كي كي في) النرويجية، بدعم من وزارة الخارجية النرويجية، وممثلية النرويج في فلسطين، من خلال المنتج الفني أريك هيليستاد، وإشراف تقني لمهندس الصوت النرويجي مارتن أبراهمسن، وصمم لوحات الأسطوانة الفنانة اللبنانية تانيا صالح.

الأغنية التي كتبتها لك

ضمت الأسطوانة ست أغنيات تراثية، هي: «موطني»، و«زورونـي كل سنة مرة»، و«بكتب اسمك يا بلادي»، و«لما بدا يتثنى»، و«الحلوة دي»، و«يما مويل الهوا». كذلك ضمت من الأعمال الجديدة موال «يا حروف الوطن»، و«وطني يا مهد الأحرار»، و«تحية لغزة»، التي أخذ منها الألبوم عنوانه، وأيضاً ضمت الأسطوانة معزوفة عنوانها «الأغنية التي كتبتها لك»، وتراوح زمن الأغنيات بين دقيقتين ونصف إلى ست دقائق. بدأت الأسطوانة بواحد من أشهر الأناشيد الفلسطينية، الذي وضع كلماته ابن مدينة نابلس، الشاعر إبراهيم طوقان (1905 - 1941)، ولحنه الموسيقي اللبناني محمد فليفل (1899 ـ 1986)، المتمرس بالموسيقى العسكرية، ويقول مطلعه: «موطني الجلال والجمال.. والسناء والبهاء في ربـاك.. والحياة والنجاة.. والهناء والرجاء في هواك.. هل أراك». جاء أداء جوقة الشباب جماعياً متماسكاً في غاية القوة، وحرص المشرفون على إخراج الأسطوانة على أن تكون نسختهم من النشيد متوافقة تماماً مع اللحن الأصلي المتسم بالحماسة، ولا سيما بعد أن تكرر أداؤه من بعض المطربين الفلسطينيين بإيقاع أبطأ، وأسلوب هادئ، قد يكون أقرب إلى التطريب، وهو ما أفقد النشيد روحه الثورية الشابة المتدفقة. هكذا، أعادت جوقة الشباب النشيد إلى مكانته.

في عام 1973، كتب المطرب اللبناني إيلي شويري (1939 ـ 2003) ولحّن نشيده الذي اشتهر لاحقاً «بكتب اسمك يا بلادي»، فصار من أكثر الأناشيد انتشاراً في الأراضي الفلسطينية عموماً، وقطاع غزة خصوصاً. اختارت الفرقة النشيد ليكون ضمن محتويات الأسطوانة، ويبدو أن طارق عبوشي الذي أشرف على توزيع عدد من أغنيات الألبوم، مال في هذا النشيد إلى توزيع يحافظ كثيراً على الروح الشرقية التي يتسم بها العمل؛ فجاء في غاية الإطراب والشجن. تقول كلماته: «بكتب اسمك يا بلادي.. ع الشمس الما بتغيب.. لا مالي ولا ولادي.. على حبِّك ما في حبيب.. يا دار الأوفى دار.. ياللي بقلِك الأشعار.. تِبقي ع الدايم مضوية.. مزروعه مجد وغار.. ع البرج العالي وقفوا الخِيالي.. وسيوف تلالي.. وشمسِك ما تغيب.. لا مالي ولا ولادي.. على حبِّك ما في حبيب».

يا حروف

ومن أهم مكونات الأسطوانة، موال «يا حروف الوطن»، من كلمات محمود أبو سمرة وألحان أحمد أبو داود، موظفاً حروف كلمة «فلسطين» بعد مقدمة تقول: «والله يا حروف الوطن مثل العقد في الصدر ما أحلاه.. ثم تتوالى الكلمات: الفاء فلسطين الحبيبة ما أغلا الوطن يا عرب ما أغلاه.. واللام لما اتوحدوا كان الحجر مقواه.. والسين سؤال السجين.. وين الفرج ألقاه.. والطا طلعت بدر على الشهيد في ثراه.. واليا يا أهل المراجل لمّ الشمل ما أحلاه.. والنون نون النبي قدسنا مسراه». بالطبع، الموال لا يصلح لغناء جماعي، فاختارت الجوقة صوتين لشاب وطفل، ليغني كل واحد منهما إحدى شطرات الموال، الذي فرض السياق تلحينه مسبقاً، بالمخالفة للمعتاد من ارتجال في الأغلبية الساحقة من المواويل.

بعد الموال، تأتي أغنية «وطني يا مهد الأحرار»، من كلمات إبراهيم داود وألحان إبراهيم النجار، وتميز نصه بالتغني لمختلف أجزاء الوطن الفلسطيني: الضفة الغربية، وقطاع غزة، والقدس، يقول: «وطني يا مهد الأحرار.. يا قلعة حب وفخار.. يا نجما كلله الغار.. يعلو هامات الثوار.. ستعيد لوطني ماضيه.. مهما طال الليل وجار.. وأذان النصر سنعليه فوق القدس وكل مزار.. غزة هاشم أرض النار.. والضفة إكليل الغار.. والقدس عروس الأحرار.. والمهد كنيسة أنوار».

«سلام لغزة»، هي الأغنية الأخيرة والرئيسة في الألبوم، وهي أيضاً الأطول زمنياً بمقدار ست دقائق، وضع كلماتها فؤاد سروجي، ولحنها سهيل خوري، بتوزيع النرويجي خيتيل بييركستراند، وتضمنت معانيها تحية إكبار لأهل غزة وصمودهم في وجه الاحتلال. جاءت كلماتها في صورة قصيدة، وجاء لحنها أقرب ما يكون إلى قالب الطقطوقة، بحيث صار مطلعها مذهباً يتكرر بين أغصان ثلاثة.

بعد مقدمة حماسية تنتمي إلى عالم المارشات العسكرية، يبدأ المذهب: «سلام لغزة سلام سلام.. سلام لكل العيون الحزينة.. تفيض دموعها بأساً وعزة.. سلام سلام لغزة سلام. ثم يأتي الغصن الأول: سلام لشعب أبيّ عنيد.. بسهل خزاعة يلمّ الحصيد.. وحين يصدِ وحوش الحروب.. يشيع في كل يوم شهيد.. ويصمد في وجه كل الخطوب.. بعزم وفخر وبأس شديد.. فقد علمته قضايا الشعوب.. بأن الحديد يفل الحديد».

وباللحن نّفسه تقريباً، يأتي الغصن الثاني: «سلام لغزة خلف الحدود.. بصبر وعزم لجمع القيود.. لطفل قضى تحت قصف المباني.. لأم تعاني وشاب يخوض.. تضج دماؤه بالعنفوان.. ويعرض فوق عيون السماء.. ويفرض فوق الركام انتصار.. لغزة شعب يفك الحصار». ثم يأتي الغصن الثالث: «سلام سلام لشط رفح.. وفي بيت لاهيا ودير البلح.. وللبرتقال بحوض المغازي.. مزارع أرض لفجر سرح.. يشد الخطا رغم أنف الجنود.. وصياد بحر تحدى الوعود.. سلام لشعب عزيز مقاوم.. يقدم درساً بعلم الصمود». لا ريب أن الكلمات في هذه الأغنية تقاسمت البطولة مع اللحن الحماسي والأداء القوي للمجموعة. سجلت موسيقى الأسطوانة خلال ديسمبر/ كانون الأول عام 2015 في استوديو المعهد الوطني للموسيقى في رام الله، ثم استكملت في يناير/ كانون الثاني 2016 في استوديو أصايل في غزة، وكانت أهم إنتاج معهد إدوارد سعيد للموسيقى في قطاع غزة، الذي تديره منال عواد، والتي قالت في تصريحات صحافية متكررة إنها -منذ السابع من أكتوبر- لا تعرف أي شيء عن المعهد، ولا إن كان مبناه ما زال قائماً، أو قد هدم تحت قصف الاحتلال الإسرائيلي الشديد الذي طاول المنطقة حوله.

ظل المعهد لسنوات يمثل أهم مؤسسة موسيقية في القطاع، وعمل دوماً على ترسيخ الهوية الموسيقية الفلسطينية، وإحياء التراث الغنائي الفلسطيني، وكانت «جوقة غزة للشباب» من أهم ثمرات اهتمامه بالأجيال الجديدة. لكن من يستمع إلى أغنيات الأسطوانة، فسيتطلع حتماً إلى أعمال جديدة للفرقة، وهو ما تستبعده الأهوال التي تعانيها غزة وشعبها.

استعادت الفرقة أغنية «بكتب إسمك يا بلادي» (مؤمن فايز / Getty)

بقيت جوقة غزة للشباب واحدة من فرق «الألبوم الواحد»

بدأت الأسطوانة بواحد من أشهر الأناشيد الفلسطينية «موطني»

«تطوّر طيفي» لرافييل تورال... تصوّف صوتي إلكتروني

علي موره لي

يُثبت «تطوّر طيفي» (Spectral Evolution) للأذن، وهو الألبوم الصادر أخيراً للمؤلف البرتغالي المعاصر رافاييل تورال (Rafael Toral)، أن الموسيقى الإلكترونية قادرة على توليد الطاقة الروحية في كلّ من عمليّتي الإبداع والاستماع، وحمل المعاني الأشد عمقاً والأكثر رمزية حول الكون والطبيعة والإنسان، فضلاً عن توفيرها، في تلك المحصلة، مختبراً حيوياً خلّاقاً للسبر والابتكار. بتفحّص الشكل، يحتوي الألبوم على تراك وحيد مُتّصل يمتد بطول 47 دقيقة. عند تأمّل المضمون، يُعيد المؤلّف عبر الوسيط الموسيقى الإلكترونية إنتاج العلاقة الأزلية بين الثابت والمتحول، ليس من وجهة النظر الأدونيسية، نسبة إلى الدراسة النقدية الحداثوية المعروفة إزاء الثقافة الإسلامية، للشاعر أدونيس، والتي ترصد ثبات الثابت وتحوّل المتحوّل، وإنما من وجهة الخبرويّة الذوقيّة في التجربة الصوفية، التي تُبصِر متحوّلاً في كل ثابت وثابتاً في كل متحوّل.

تُسمع خيمياء الأصوات لدى تورال كما لو أنها تحدِث من داخل استوديو التسجيل وعبر مفاتيح السنثسايزر (Synthesizer) وأزرار محّولاته مادةً موسيقيةً برزخيّةً، تنبثق عنها، كما وتنصهر فيها، جميع العناصر المكوِّنة للعمل الفني ضمن وحدة تشكيلية، أو تركيب صوتي (Synthesis)، يحتضن الأضّاد ويُنفصل عنها في آن، تجاوزاً للوجهتين الزمنية والمكانية، في تقاطعٍ تأويلي بين مفردات الصيرورة الجدلية، كما تصورها الفيلسوف الألماني هيغل، وبين معجم المصطلحات التقنية لصناعة الموسيقى الإلكترونية.

ذلك التركيب، أو تلك المادة الموسيقية البرزخية قوامها الكهرباء. ومن هذه الأخيرة، تنشأ على مدار المقطوعة كل المكونات وتتجلّى للأذن جميع العناصر. المقدمة ضربٌ على أوتار الغيتار الكهربائي، حيث ستُجسّد تدخّلات تلك الآلة الإلكترو-أكوستية في غير إحداثية زمنية صورةَ الإنسان، أو بالأحرى صوته، بحكم أنها يعزفها عازف مؤدٍّ، هو المؤلف نفسه، وستلعب أيضاً دوراً بنيوياً، بتأمينها قُدماً صلةً للوصل ونقطةً تحديد الموقع، كأني بالإنسان، أو الفنان، يُشكّل المركز والمرجعية. تنضم إلى الغيتار الكهربائي في ما يُشبه التقاسيم الهارمونية، تجلّيات إلكترونية لطيور وعصافير، تُسمع كما لو أنها استحضارٌ صوتيٌّ من استشعار موجاتٍ كهرومغناطيسية. أي نعم، قد تم توليد الأصوات في بيئة صناعية في الأستوديو وبواسطات المركّبات، إلا أن تشكيلها جرى وفق أنماطٍ ارتجالية مدروسة، إذ يراد لها تكون عشوائية، فتُحاكي الأصوات الكهربائية أصواتَ البيئة الطبيعية.

تنشأ على مدار المقطوعة كل المكونات الموسيقية بفعل الكهرباء

عند عتبة الدقيقة والنصف تقريباً، ينبلج من صميم الفراغ السمعي دفقٌ نغمي هارموني، مُنسجم ومُتّصل، سيستمر من دون انقطاع تقريباً حتى نهاية العمل. أشبه بفيضٍ نوراني يتجلّى من خلال الصوت، يستَمدّ استمراره من تصميمه إلكترونياً على نسق آلة أورغن، التي تعتمد في تصويتها على حقن أنابيبَ عملاقة بالهواء، يجري تنفيسها فور الضغط على مفتاح مُعيّن بغية عزف نغمة معيّنة. لذا، يتوفّر لصوت الأورغن، مجازياً، امتدادٌ لانهائيّ. لهذا، تُعد تلك الآلة، ذات الأصول الكنسيّة، وسيلةً موسيقية للتعبير عن القدسي، الثابت والأزلي.

إلا أن هذا الفيض الهارموني، وإن ظل ثابتاً ومحوريّاً بوصفه عنصراً تشكيليّاً، أي «موتيف»، يبقى مع ذلك في تحوّل مستمر، كجريان ماء النهر. تنعكس تحوّلاته أولاً، من خلال الأطوار النغمية التي يمر بها، إذ تطرأ عليه باستمرار انتقالات هارمونية شجيّة ومعقّدة في آن، وثانياً، عبر تواتر التبدّل في طبيعته اللونية، أيّ طيف الأصوات الداخلة في تركيبه؛ لعله انطلاقاً من هذا، قد اختير «تطوّر طيفي» اسماً للألبوم، فالطيفية (Spectral) مدرسةٌ موسيقية فرنسية ما بعد حداثية، نشأت في فرنسا في سبعينيات القرن الماضي، قاربت الصوت كتمثيلٍ لوني، أما كلمة تطوّر (Evolution) فلعلها تشيرُ إلى جملة التحوّلات الهارمونية المستمرة التي تُحاكي، رمزياً، سُنة التطوّر الطبيعية بوجهيها الثابت والمتحول.

في الظاهر، يمكن تصنيف العمل ضمن تيار أخذ يشيع في العشريّة الثانية من القرن الحالي، خصوصاً بين أوساط الموسيقى الإلكترونية، يُعرف باسم موسيقى درون (Drone)، يعتمد الدفق الصوتي المستمر اللامتغيّر والشكل المُرسل المفتوح حتى على اللاشكل في كثير الأحيان، والممتد على فترة زمنية متّصلة وطويلة نسبياً، فيتمايز بذلك عن القوالب الموسيقية التقليدية المعروفة منذ العصور الكلاسيكية وما تحوّر عنها، تلك الخطيّة الدرامية والقائمة على حلقات، أو حركات، تحكمها آليات التفاعل بين العناصر المتعارضة، تُسيّرها وجهة تصعيدية نحو حبكة تنتهي بانحلال ذي مفعول تطهيري (Catharsis). في حين يمكن وصف «موسيقى درون» بمينيمالية خبرويّة (Experiential Minimalism) حيث الغاية هي غمْسُ المستمع في تجربة سمعية سكونية، أقرب إلى جلسة التأمل كما هي معروفة في الشرق.

رافاييل تورال (يسارا) في عرض عام 2011 (ديديه آلار/ Getty)